الري وتكثير المياه في الخطاطبة وادخل طريق المقاولات في المباني على الاطلاق وبلغ ما أُنفق على اعمال القاهرة وحدها تلك السنة خمسة وسبعين الف جنيه وبدأ ببناء دواوين الحكومة والسجون والمستشفيات لان الدواوين كانت الى ذلك العهد مبنيَّة بالطوب النيء او الدبش على غير نظام وكانت الحبوس حواصل مظلمة لا يدخلها النور الاَّ قليلاً وكان اصحاب الجرائم على اختلاف جرائمهم يخزنون فيها كالامتعة وداخلها يخنق بمجرد استنشاق هوائها... ولم يكن بالمديريات اسبتاليات داعية الى الصحة بل كان بعضها محل ورشة ونجوها واكثرها يتهدم والسليم منها كربط البهائم "

وفي اواخر سنة ١٨٨٣ استعفى المرحوم شريف باشا وتألفت نظارة جديدة برئاسة دولتلو نوبار باشا ولم يكن صاحب الترجمة فيها فبقيت الى اواسط سنة ١٨٨٨ فحينئذٍ صدر الامر الخديوي الى دولتلو رياض باشا بتأليف وزارة جديدة فجعل صاحب الترجمة ناظرًا للمعارف وبقي فيها الى ان استعفى دولتلو رياض باشا في الخامس عشر من شهر مايو سنة ١٨٩١ وتولى رئاسة النظار عطوفتلو مصطفى باشا فهمي . وسنجمل الكلام في الجزء التالي على ما فعلهُ صاحب الترجمة مدة توليهِ نظارة المعارف هذه النوبة وتمام عرفناهُ من امرهِ بالخُبر والخبر

مشاهد اوربا

١٣

مدافن باريس

لم اشأ ان اغادر باريس قبل ان اشاهد منازل سكانها الباقية حيث القوا عصا الترحال . وقالوا ان نحول عنها او تأول الدنيا الى الزوال . فسار بي الدليل الى مقبرة الاب لاشيز ومرَّ بي على سجن الجناة واراني المكان الذي يُقتل فيهِ من يحكم عليهِ بالقتل جزم وقال انهُ يوم يراد انفاذ الحكم على احد تُضيق هذه الساحة والاماكن المحيطة بها بالناظرين حتى تؤجر النافذة بقدر كبير من المال . فقلت في نفسي لم يزل الطبع الوحشي في ابن آدم فيقتل ابناء نوعهِ ويسرُّ برؤيتهم يُقتلون . ولعلَّ ذلك باقٍ في نفسهِ بقاء الاعضاء الاثريَّة في جسدهِ وسيزول مع الزمان بارتقائهِ في سلَّم الفضائل . ثم بلغنا المقبرة وصعدنا فيها وهي في مرتفع من الارض يطل على المدينة وكأني سمعت سكانها يرددون قول ابي العلاء القائل

صاحِ هذه قبورنا تملأُ الرحـ ـبَ فأين القبور من عهد عادِ
رُبَّ لحدٍ قد صار لحدًا مرارًا ضاحكٍ من تزاحم الاضدادِ
ودفينٍ على بقايا دفينٍ في طويل الازمانِ والآبادِ

فوقفت هنيهةً انظر ما حولي من المدافن المتقاربة حتى كانها بناءٌ مرصوص وخطر لي ان اقول للدليل

خفِّف الوطأَ ما اظنُّ اديمَ الا رضِ الَّا من هذه الاجسادِ

ولقد سرتُ واياهُ الهوينا كأن على رأسينا الطير وجلنا في انحاء المقبرة فأراني قبور اشهر رجال باريس الذين سارت بذكرهم الركبان وبنوا لفرنسا صروحًا من المجد تبقى على كرور الزمان من الفلاسفة والعلماء والشعراء والبلغاء والساسة والقوَّاد. وقد اعجبني ان الجميع مدفونون في مقبرة واحدة على اختلاف اديانهم ومذاهبهم فترى هناك قبور الاسرائيليين والمسيحيين كأن البلاد التي جمعتهم أحياءً لم تشأ ان تفرق بينهم امواتًا الَّا بجمع كل اهل مذهب منهم في جهة واحدة تسهيلاً لاقامة الشعائر الدينيَّة. ورأيت الارامل والثكالى واليتامى مرتدين اثواب الحداد وبايديهم اكاليل الازهار يردون لزيارة امواتهم وكأنهم اقلامٌ حيَّةٌ تخطُّ على صفحات الدهور ان لا انفصال بين هذه الحياة والأُخرى وان الذين وارينا اجسامهم في الرموس لم ينقطع حبل الاتصال بيننا وبينهم فنهدي اليهم الازهار والرياحين كما لو كانوا احياءً وانَّ لنا سلوانًا في قول من قال

لا تصلحُ الارواح الَّا اذا سَرَى الى الاجسادِ هذا الفسادُ

وقد اخبرني الدليل انهُ يزور هذه الرموس يوم عيد جميع القديسين ويوم عيد جميع النفوس مئة الف نفس من سكان باريس وان الرموس الكبيرة لا يقل عددها عن عشرين الفًا ولكنني لم ارَ بينها قبورًا عظيمة فخيمة البناء او بديعة التماثيل كما رأيت في مقبرة ميلان. واعظم القبور التي رأيتها هنا قبر الرئيس تيبرس وهو جديد في شكل هيكل كبير رفيع العماد حسن البناء فاخرهُ. وقبر البرنس دميدوف الروسي وعليهِ رسم المطرقة الماسونيَّة مكررًا مرارًا كثيرة لانهُ كان رئيسًا للماسون ويقال ان نفقات انشاء هذا القبر بلغت ستة ملايين من الفرنكات. وقبر ليا ناصب المسلة المصريَّة في ساحة الكونكورد وعليهِ مسلة كبيرة شبيهة بها. وليس هناك خمائل ورياحين تستحق ان تقابل بالخمائل التي في مقبرة ميلان. وقد سألت الدليل قائلاً لماذا دفنتم تيبرس هنا ولم تدفنوهُ في البنثيون مدفن عظمائكم فقال « لانهُ سفك دماء الفرنسويين » فاعجبت بهذا الجواب الوجيز ولم استزدهُ ايضاحًا

اما البنثيون فمدفن عظماء فرنسا ونخبة قوّادها وهو كنيسة كبيرة من اعظم كنائس باريس واجملها بناء . وضع الملك لويس الخامس عشر الحجر الاول من اساسه سنة ١٧٦٤ وتمّ بناؤهُ سنة ١٧٩٠ على اسم القديسة جنفيف حامية باريس . واتفق ان تمّ بناؤهُ والبلاد تتمخض بالثورة فحوّلهُ الثائرون هيكلاً وسمّوهُ البنثيون تشبيهاً لهُ بنثيون رومية وجعلوهُ مدفناً لعظماء البلاد . ثم أُعيد كنيسة سنة ١٨٠٦ بامر نبوليون الاول وبقي مدفناً للعظماء ودُفن فيهِ اربعون رجلاً منهم مدة الامبراطورية الاولى . وتقلبت عليهِ الشؤون بعد ذلك فأُعيد هيكلاً ثم أُعيد كنيسة ثم أُعيد هيكلاً واستُعمل في الحرب الاخيرة مخزناً للبارود وهو الآن مدفن للعظماء لا غير وفيهِ قبور خمسين رجلاً منهم فكتور هيغو وجان جاك روسو وفولتير ولافرانج وغيرهم من قوّاد الجيش واعوام البحر الاّ ان رفات روسو وفولتير ليست فيهِ

والهيكل في شكل صليب يوناني طولهُ ٣٧٠ قدماً وعرضهُ ٢٧٦ قدماً وفي وسطهِ قبة شاهقة ارتفاعها ٢٧٢ قدماً وامامهُ رواق كبير فيهِ ٢٢ عموداً منلماً من النوع الكورنثي ارتفاع كلٍّ منها ٦٢ قدماً ويدخل من الرواق الى الهيكل بثلاثة ابواب من البرنز ارتفاع كل منها ٢٥ قدماً . وداخلهُ جامعٌ للفخامة والبساطة كظاهرهِ فالقبة قائمة على اعمدة كورنثيَّة عظيمة ولكنها ليست ضخمة ولا نحيفة . وفي الجدران صور وتماثيل دينيَّة وتاريخيَّة تزيدها رونقاً ومهابة . اما النواويس التي توضع فيها رفات الاموات ففي اقبية كبيرة تحت الهيكل وقد دخلتها مع ثلاثة من السيّاح فلم اجد فيها شيئاً يستحق الذكر سوى ان الحارس الذي سار امامنا كان يمتحن لنا عود الصدى وترديدهُ كأننا في مدرسة العلوم الطبيعية

وفي باريس مدفن آخر يستحق ان يزار قبل كل مدفن بل قبل كل مشهد من مشاهدها وهو مدفن نبوليون الاول في الانفاليد فانهُ

تضمن مجداً عُدمليًّا وسودداً وهمة مقدامٍ ورأيَ حصيفِ

والانفاليد دار فسيحة بنيت منذ سنة ١٦٧٠ لسكن الجنود الذين يصابون بآفة في القتال او الذين يمضي عليهم ثلاثون عاماً في الجندية فيقيمون فيهِ كأنهم في بيوتهم . وتسع هذه الدار خمسة آلاف نفس ولكني شاهدت غرفة المائدة التي فيها فاذا عدد من يأكل عليها قليل جداً قد لا يزيد على بضع مئين . وفي حديقة الدار مدافع كثيرة مما غنمهُ الفرنسويون في حروبهم منها مدفع قديم صبَّ في فينا سنة

١٥٨٠ وعليهِ بالجرمانيَّة ما معناهُ " اذا تردّد صوت غنائي في الهواء دكت امامي اسوار كثيرة ". ومدفع صب في بلاد الجزائر وعليهِ بالعربيَّة ما نصهُ " صُنع في زمن السلطان عبد الحميد خان في الجزائر باسم مُحَمَّد باشا ابن عثمان جزاهما الرحمن بالرضى والرضوان سنة ١١٨٩ "

وفي هذه الدار خزانة الاسلحة القديمة من الدروع والخوذ والسيوف والتروس والفؤوس والقسي والحراب والمزاريق والمدافع والبنادق وما اشبه من ادوات الحرب والقتال وهي مجموعة من كل البلدان من اقاصي الهند والصين الى اقاصي بلاد المغرب ومن العصر الروماني الى هذا العصر . وفيها ايضاً كثير من الاعلام القديمة التي غنمها الفرنسويون في حروبهم ويقال انهُ حُرق فيها الف وخمس مئة علم من الاعلام التي غنمها نبوليون الاول لكي لا تقع في يد الجنود المتحدة وذلك سنة ١٨١٤

وواسطة عقد هذه الدار والدرة اليتيمة التي تتجه اليها الانظار الكنيسة التي فيها رفات نبوليون الاول فان عليها قبة عظيمة باذخة منشاة بالذهب علوها ٣٤٤ قدماً وقبر نبوليون تحت هذه القبة في منخفض مستدير قطرهُ ٣٦ قدماً وعمقهُ عن ارض الكنيسة ٢٠ قدماً وجدرانهُ من المرمر الصقيل عليها عشر من الصور الخياليَّة البديعة . والقبر نفسهُ ناووس كبير من المرمر الخمري اللون طولهُ ١٣ قدماً وعرضهُ نصف ذلك وعلوهُ ١٤ قدماً وثقلهُ اكثر من ٦٧ طناً والارض حولهُ موصوفة بالفسيفساء في شكل اكليل من الغار وعليها اسماء ثمان من الوقائع الشهيرة التي انتصر نبوليون فيها وفي هذه الكنيسة قبر اخويهِ جيروم بونابرت الذي كان ملك وستفاليا ويوسف بونابرت ملك اسبانيا. وفيها ايضاً نصب للجنرال تورن الذي توفي سنة ١٦٧٥ وهو من اجمل الانصاب التي رأيتها في باريس وقد أُتي بهِ من كنيسة سنت دني ونصب للجنرال فوبان . وعند باب المنخفض الذي فيهِ قبر نبوليون تاووسان لدورك وبرتران صديقي بونابرت الحميمين وفوقهُ عبارة مما كتبهُ بونابرت نفسهُ وهي « اودُّ ان توضع رفاتي على ضفاف السين في وسط الشعب الفرنسوي الذي احببتهُ حباً شديداً » وفي الكنيسة محراب من اجمل ما رأتهُ عيني واظن انهُ من اخر ما صنعهُ الصنَّاع

وقد أُخبرتُ ان في باريس ٢٢ مقبرةً ولكن مقبرة الاب لاشيز التي وصفتها آنفاً اكبرها واعظمها شأناً لان فيها مدافن الاغنياء والعظماء ولذلك اجتزأت بزيارتها عن زيارة غيرها . اما البنثيون وكنيسة الانفاليد التي فيها قبر نبوليون الاول فاعظم

المباني التي شاهدتها حتى الآن فوق الاضرحة لكنها في الحقيقة كنيستان للمدفنان

١٤

قصر فرساليا

سمعت عن قصر فرساليا من احد الاصدقاء في القاهرة فتاقت نفسي الى مشاهدته قبل ان اغادر هذه الديار فذهبت اليه مع جماعة كوك وكنا في المركبة اربعة وعشرين نفساً اكثرهم من الانكليز القاطنين في استراليا وذهب معنا دليل شيخ عرك الدهر وذاق ما فيه من إخلٍ والخمر . وكأنهُ استظهر كتب الادلة وما شاكلها من الاسفار فلم اسألهُ عن شيء الاَّ رأيتهُ جهينة الاخبار . فمررنا اولاً في سان كلو وهي مدينة صغيرة في ضواحي باريس ورأينا اطلال قصرها الشهير الذي رُفعت عليهِ اعلام المجد والعظمة منذ سنة ١٥٧٢ الى الحرب الاخيرة وكان مصيفاً لنبوليون الثالث ومظهراً لعظمتهِ وقد امسى الآن اطلالاً بالية والصنَّاع يقتلعون حجارتهُ ويهدون ارضهُ ليبنوا مكانهُ مدرسة للصناعة (بوليتكنيك) لان مدارس باريس الكليَّة ضاقت بتلامذتها الذين بلغ عددهم ستة عشر الفاً . وحبذا لو كان ذلك نصيب جميع القصور التي لم تزل وقراً على البلاد بنفقاتها الباهظة وليس فيها ساكن سوى الجرذان فتستحيل مدارس للعلوم والفنون وتسترد البلاد منها بعض ما انفقتهُ عليها . وحول القصر حدائق غناء ورياض يانعة كانت الامبراطورة وبناء البلاط ينزهن فيها ويتفيأن ظل ادواحها الغيناء وستصبح مسرحاً للشبان طلاب العلوم الصناعيَّة ومتنزهاً لهم اذا كانت ادمغتهم من الدرس والتنقيب

ثم عدنا الى المركبة وواصلنا السير الى ان بلغنا مدينة فرساليا والارض على الجانبين حراج وغياض تلما يرى فيها مفترج . فمررنا اولاً الى قصر صغير يقال لهُ الترينون الكبير . وكأن الدليل اراد ان لا يدهشنا فجأة برؤية قصر فرساليا الكبير فجعل رؤية الترينون تمهيداً لهُ . وهو الى الشمال الغربي من قصر فرساليا وعلى نحو اربعة آلاف قدم منهُ وقد بناهُ الملك لويس الرابع عشر بالرخام منقوش وفيهِ غرف بديعة النقش والزخرفة كثيرة الصور والتماثيل والاثاث الفاخر . من ذلك مائدة من خشب الجوز قطرها نحو ثلاثة امتار وهي من لوح واحد مقطوع من الشجرة عرضاً . وحوض وجامانيهون من المرمر الملكي الاخضر تلمع بلونها البهي كالزمرد المعرَّق وهي هدية من القيصر اسكندر الاول الروسي الى نبوليون الاول . وآنية صينيَّة من معمل سافر وهي مثل كل آنية هذا المعمل ممتازة بحسن صنعها ودقة نقشها وبهاء الوانها على جميع الآنية التي رأيتها حتى الآن صينيَّة

وغير صينيَّة. والى يمين هذا القصر غرف فيها كثير من المركبات والمزالق القديمة والحديثة والعدد الثمينة من عهد الملك لويس الرابع عشر الى عهد نبوليون الثالث وبينها مركبة كبيرة مذهبة بلغت نفقات عملها مليوناً من الفرنكات والمركبة التي ركب فيها الملوك الذين زاروا باريس. وبلي هذا القصر قصر آخر يسمى التريانون الصغير وهو من اجمل القصور وابدعها زخرفةً وكانت الملكة ماري انطونت تحب الاقامة فيهِ وقد شاهد كثيرًا من افراحها واتراحها ولم نقم فيهِ الاَّ دقائق قليلة لان غرضنا القصر الكبير الذي سارت بذكرهِ الركبان وانفقت مملكة فرنسا عليهِ وعلى الروض المتصل بهِ الف مليون من الفرنكات ولم تزل تنفق عليهِ نفقات طائلة الى يومنا هذا.[1] فعدنا اليهِ ووقفنا في ساحتهِ الفسيحة برهة نقلب الطرف تارةً في ما فيها من التماثيل وطورًا في ما يظهر لنا من جدران القصر والدليل يسرد علينا طرفًا من تاريخهِ. ثم دخلنا مقاصيرهُ العديدة وجعلنا نتفقد ما فيها من الصور والتماثيل والمرايا والموائد والزخارف المختلفة وبقينا اربع ساعات متواليات ننتقل من مقصورة الى ابدع منها ولا نقف الاَّ امام بعض الصور الشهيرة او الآثار النفيسة او المصنوعات الفاخرة ولا يطول وقوفنا حينئذٍ الاَّ بضع ثوانٍ والاَّ فلو وقفنا ربع دقيقة امام كل صورة من صورهِ وهي خمسة آلاف لاقتضى لنا احدى وعشرون ساعة. وقد كنت احسب ان قصر الدوقات في البندقيَّة وقصر اللوفر في باريس افخر قصور الملوك حتى دخلت هذا القصر فرأيت ان المهندسين والمصورين والنقاشين وكرام الملوك قد تألبوا وتناصروا على بنائهِ وزخرفتهِ وتمثيلهِ وتمثيقهِ ولم يضنوا بمال ولا بنضار على تمثيل ما يتصورهُ الذهن ويتوهمهُ الخيال من صور الحسن ومعاني الجمال. وما احرى بهِ قول ابن حمديس الصقلي الذي قال

قصرٌ لو انك قد كحلت بنورهِ ... اعمى لعاد الى المقام بصيرا
ابصرتهُ فرأيت أبدع منظرٍ ... ثم انثنيتُ بناظريهِ محسورا
فظننتُ اني حالمٌ في جنةٍ ... لما رأيتُ الملك فيهِ كبيرا
أعيت مصانعهُ على الفرس الأُولى ... رفعوا البناء واحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهورُ وما بنوا ... للوكهم شبهًا لهُ ونظيرا

هذا هو القصر في حالهِ الحاضرة بعد ان تولاهُ النسخ والتغير مرارًا ونزع احد

(١) يقال ان نفقة اجراء الماء الى الخيرات التي في روض هذا القصر يومًا واحدًا عشرة آلاف فرنك ولذلك لا يجري اليها الآن الاَّ يومًا واحدًا في الشهر

الملوك اكثر آنيته الفضيَّة وسكها نقودًا ودخلهُ رجال الثورة واتلفوا امتعتهُ وباعوا بعضها بابخس الاثمان وجُعل دارًا للعصابين في الحروب وغيرهم فكانوا ينشرون ثيابهم في كواهُ ويربُّون البقر والمعزى على سطحهِ فكيف كان شأنهُ والملك الواسع باسط عليهِ رواقهُ وعشرة آلاف من امراء فرنسا وعظمائها يقيمون فيهِ آكلين شاربين من كرم الملك لويس الرابع عشر الذي اراد ان يغمسهم في الترف والملاذ لكي ينفقوا كلَّ ما لهم ثم يغمرهم بالنعم والعطايا ليصيروا لهُ عبيدًا ارقاء فيسلم من دسائسهم ويستعين بهم على اهل مملكتهِ والفان وخمس مئة من الجياد الصافنات مربوطة في مرابطهِ لركوب الملك واعوانهِ واجمل نساء فرنسا يتهادينَ في مقاصيرهِ ويجورن فيهِ ذيول المجد والفخار

والقصر في حالهِ الحاضرة كنز للصناعة الفرنسويَّة وهي في اوج مجدها من عهد الملك لويس الثالث عشر الى عهد الملك لويس السادس عشر وخزانة لاثمن الصور التاريخيَّة التي تمثل اشهر الحوادث في تاريخ فرنسا من ايام كارلس الكبير (سنة ٧٧٣ للمسيح) الى الآن

اما الصناعة الفرنسويَّة البادية في هذا القصر فهي في البناء والنقش والتصوير والتمثيل والتذهيب والنسج والتطريز . وكل ذلك من الطراز الاول والشكل الابدع . فالبناء مختلف المواد من الاجرّ الى المرمر واشكالهُ مختلفة باختلاف العصور ورغبة المهندسين والنقش اكثرهُ في النحاس المذهب والمرمر المجزَّع واشكالهُ لطيفة بديعة

وضمَّتْ بهِ صنَّاعهُ اقلامها فأرتكَ كلَّ طريفةٍ تصويرا

بل أرتكَ كلَّ زهرة وغصن وملاك وانسان . والتصوير لم يترك صورة من صور الجمال الَّا رسمها بأبدع الالوان فترى سقوف المقاصير واروقتها مزدانة بصور آلهة اليونان والرومان كأنها افلاك وقد تجلَّت فيها مظهرةً مجدها للناس . وجدرانها مغطاة بالصور التاريخيَّة والتخيليَّة وبينها صور الملوك والملكات وربات الحُسن والدلال

من كلِّ صائدةِ الرجال بمقلةٍ منها وصائدة الجمال ببرقع

استغفرُ الله لا برقع ولا صون بل الجمال بادٍ مبذول لكل من يراهُ كما هو في اكثر صور الفرنسيس وتماثيلهم !

والتمثيل لم يترك ملكًا ولا قائد جيش ولا امير بحر من رجال فرنسا الَّا رسمهُ احسن رسم بل ترى هنالك ايضًا تماثيل بعض القياصرة باثوابهم المنمقة وهي من حجر البرفير البديع الالوان وتماثيل تخيليَّة كثيرة منها تماثيل آلهة ومنها تماثيل مدُن او ممالك . والتذهيب

على النحاس والخشب والجبس لم يزل في طلاوته الاولى كانهُ صُنع بالامس لان الذهب ابريز وورقهُ ثخين فلا يكمد على مرور الزمان ولا يفنى بكثرة الاستعمال . والمنسوجات للاسرَّة والستائر والكراسي نسجت في انوال ليون من الحرير النقي ووشيت بالذهب وطرَّزتها عقائل فرنسا وكرائم اميراتها

واما الصور التاريخيَّة فمنها ما هو في القصر نفسهِ كالصور التي في سقف مقصورة المرايا وهي من اعظم مقاصير القصور طولها ثلاثة وسبعون مترًا وعرضها عشرة امتار ونصف متر وعلوها ثلاثة عشر مترًا وفيها سبع عشرة كوَّة كبيرة تجاه الروض الكبير يقابلها سبع عشرة مرآة كبيرة تماثلها شكلاً . وفي سقفها صور تاريخيَّة تمثل ثلاثين حادثة من تاريخ الملك لويس الرابع عشر كل صورة منها محاطة بطوق مذهب من الفخر ماصنعهُ الصنَّاع والنقَّاش. ومنها ما جمع جمعًا في مقاصير القصر فصار بها متحفًا تاريخيًّا وبذلك حُفظ من الدمار فانهُ لما جلس بونابرت على سرير فرنسا اراد ان يهدمهُ ويبنيهُ ثانيةً على شكل جديد او ان يرممهُ ترميمًا ولكنهُ عدل عن ذلك لما رأى كثرة النفقات اللازمة لهُ . ثم رممهُ الملك لويس الثامن عشر بين سنة ١٨١٥ وسنة ١٨٣٠ . ولما تمهد الملك للملك لويس فيليب شرع في تحويلهِ معرضًا للصور التاريخيَّة وكان ذلك سنة ١٨٣٣ فجمعت فيهِ هذه الصور من قصر اللوفر وغيرهِ من القصور وانتدب كبار المصورين لتصوير ما لا صورة لهُ . وبلغت نفقات ذلك خمسة عشر مليونًا من الفرنكات دفع اكثرها من خزانة الملك . ومن ثم الى الآن والصور التاريخيَّة تزاد فيهِ من غير نظر الى قيمتها الصناعيَّة فيرى فيهِ الغث والسمين . وقد شاهدت بينها صور حروب الصليب في القدس الشريف وعكاء وعسقلان وبيروت ووقائع حرب القرم مع الروس وحرب الجزائر مع الامير عبد القادر الجزائري وحرب مراكش وحروب نبوليون في مصر وحروب أُخرى في اوربَّا وآسيا وافريقية واميركا وفي الجملة كل الوقائع التي كان النصر فيها للفرنسويين. وقد قيل ان الانسان يستفيد من تذكر الفشل اكثر مما يستفيد من تذكر الظفر الَّا ان مديري هذا المتحف وغيرهِ من المتاحف الاوربيَّة التي شاهدتها لا يرون هذا الرأي على ما ظهر بل يجمعون صور الوقائع التي ظفروا فيها ويتركون صور الوقائع التي غُلبوا فيها ليجمعها اعداؤهم في متاحفهم

وقد هالتني صور الحروب (واكثر الصور الكبيرة منها) فكنت اقف امامها مدة طويلة اتأمل في شراسة ابن آدم وطمع الملوك والقوَّاد . فان الانسان الذي يتألم من

شوكة تنشب في يدهِ يحمل على ابن نوعهِ بقلب اقسى من الحديد ويمزق لحمهُ تمزيقاً . والامة التي اذا قُتل رجل من ابنائها هاجت وماجت وملأت الارض نواحاً ورثاء تحمل على امة مجاورة لاقل علة او لغير علة وتفتك بالالوف المؤلفة من ابنائها ورحم الله من قال

قتل امرىء في غابةٍ جريمة لا تغتفرْ
وقتل شعب آمنٍ مسألةٌ فيها نظرْ

ثم التفتُّ فاذا الدليل والرفاق قد سبقوني كثيراً فاهرول وراءهم واترك صوراً كثيرة لا أراها الاَّ لمحاً. ومن الصور التي استوقفتني صورة الغنائم دوق دوميل لمنازل الامير عبد القادر ومضاربهِ وهوادج مخدرات العرب وكرائم نسائه المغرب وكان الامير عبد القادر غائباً ولولا ذلك لاذاق دوق دوميل وفرسانهُ حرباً لم يذوقوا نظيرها ولبقيت هذه الصورة في مخيلة مصورها او لورد كأس المنون قبل ان تخطر لهُ ببال لانهُ كان في المعركة . وهي من اكبر الصور فان طولها واحد وعشرون متراً وثلث متر وعرضها نحو خمسة امتار . ومما تمتاز بهِ هذه الصور التاريخيَّة انك ترى بينَ بعضها الرجال والخيول بقدودهم الطبيعيَّة فتظن انك ترى واقعة حقيقيَّة من وقائع القتال والقتلى والجرحى مطروحون فيها على الصعيد تمزقهم حوافر الخيل ولا من يرثي ولا من يغيث والجنود ممسك بعضهم بخناق بعض او مسدد اليهِ آلات الموت والهلاك . ومما يستوقف النظر صورة الامير عبد القادر وبنيهِ في دار سجنهم حين اطلقهم الامبراطور نبوليون الثالث معترفاً بفضل الامير وصادق عزيمتهِ . وصور مجالس فرنسا وثوراتها وحروب بونابرت . واكثر هذه الصور في رواق الحروب وهو مقصورة عجيبة طولها مئة وعشرون متراً وعرضها ثلاثة عشر متراً وفيها ٣٣ صورة من اعظم الصور الحديثة وتمثال ثمانين قائداً من القوَّاد الذين قتلوا في الحروب

ومما يحسن ذكرهُ انهُ لما نزلت الجنود الالمانيَّة في هذا القصر وقت الحرب الاخيرة غطوا الصور كلها لكي لا تتلف ولا تصاب باذًى وخرجوا من القصر كما دخلوا اليهِ ولم يفعلوا كما فعلت جنود بونابرت التي لم تدخل مدينة الاَّ غنمت كل ما فيها من نفائس الصور والتحف . وفي مقصورة المرايا الكبيرة المشار اليها آنفاً نودي بالملك وِلْهلم الاول امبراطوراً لالمانيا . ويقال ان اهالي فرساليا يذكرون الجنود الالمانيَّة بالخير الى هذه الساعة ويقولون ان بضائعهم لم ترج وارباحهم لم تكثر في وقت من الاوقات كما راجت

وكثرت وقت حلول الجنود الالمانيَّة في هذا القصر

واذا لم يكن قصر فرساليا اعظم قصور الملوك فروضهُ اعظم رياض القصور بل هو اكبر الرياض واكثرها اشجارًا وبركًا وفساقي وتماثيل ويظهر لي من خريطته ان مساحتهُ لا تقل عن الفي فدان وانهُ ليس بين رسوم الرياض رسم ابدع منهُ ولا اجمل هندسة وقد شاهدتُ جانبًا صغيرًا منهُ ممَّا يلي القصر وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فاضطررت ان اودعهُ واتبع الرفاق قبل ان ارتوي من رؤيته . وعدنا بطريق سائر ولم نشاهد معمل الخزف الشهير لاننا بلغناها بعد ان أُقفلت ابوابهُ وبتُّ تلك الليلة في باريس على اهبة السفر الى كالاي ومنها الى دوفر فلندن قصبة بلاد الانكليز وعاصمة السلطنة الانكليزيَّة

١٥

وداع باريس ولقاء لندن

ودَّعتُ باريس مفتونًا بمرآها ... وآسى حسن تجلَّى من محيَّاها
وجاء ملكٍ رفيع الشان جاورها ... دهرًا طويلاً ولم يبرح بمغناها
رواقهُ مسبطرٌّ في معالمها ... وبدرهُ مشرقٌ في اوج عليـاها
مرسومة في جبين الدهر صولتهُ ... نتيهُ عجبًا بأُولاهـا وأُخراها
وعصبةٍ عصمتهم في صناعتهم ... الهةُ الحسنِ فاستهدوا بسيماها
وخلَّدوا ذكر ارباب السيوف ومن ... فاق الورى حجةً او فاقهم جاها
او خاض بحر المعاني فاجتنى درَرًا ... وصاغ منها حلى حسن بها باهى
او غاص في لج بحر العلم مجتليًا ... غوامضَ الكون تعميمًا لجدواها
وآل علمٍ وفضلٍ طار صيتهم ... فطبَّق الارض اقصاها وادناها
بستور ماري فلامريون كلهمُ ... وبرَوْن سيكار ممن فاق اشباها
همُ الأُولى في سماء المجد قد رفعوا ... لها منارًا وأعلوهُ فأعـلاها
ودَّعتها وبنفسي من محاسنها ... آياتُ حسنٍ يهيج الشوقَ ذكراها

ودعتها وقد ارسلت الغزالة اشعتها على الرُّبى تشرب انداء الصباح. وتمزقَ الضباب ايدي سبا لما رأى بريق البيض الصفاح . فركبتُ قطار الشمال قاصدًا مرفأ كالاسيه اقصر الطرق البحرية الى البلاد الانكليزيَّة لعلي انجو من تباريح بحر المانش المشهور بشدة

انوائهِ. فسار بنا القطار والطير ازاءهُ والنسيم وراءهُ الى ان عجنا بسور باريس فتذكرت قول ابن الوردي حيث قال

متكاملٌ فيها السرور لمن بها يوماً اقام كما تكاملَ سورُها
فضيئةٌ وسنيَّةٌ ونديَّةٌ ارجاؤها وريا ضها وقصورُها

وسرنا تحفُّ بنا الرياض والغياض والمروج الخضراء فائضةٌ بالزرع والضرع الى ان بلغنا مدينة اميان وهي من مدن فرنسا الصناعيَّة ينسج فيها الكتّان والصوف والمخمل وسكانها اكثر من ثمانين الفاً ولم يقم القطار فيها الاَّ دقائق قليلة وسار منها فاطًّا مدينة بولون وكانت السحب قد عقدت في السماء مآتمها وبللتْ الثرى بمدامعها فأشرفتُ من النافذة لأرى بحر المانش فاذا هو ساكنٌ مطمئنٌ يدلُّ اكدرارُ مائهِ على نوءٍ سابق فاطمأنَّ بالي وقلتُ سفرٌ موفقٌ باذن الله. وبولون فرضة كبيرة يقال ان فيها ما في مدن اوربا الكبيرة من المتاحف والمكاتب والملاهي وهي مسقط رأس ماريت باشا مؤسس دار التحف المصريَّة ولهُ فيها تمثال من البرنز تخليداً لذكرهِ. وعاج بنا القطار من بولون الى كالاي وهي اقرب ثغور فرنسا الى انكلترا فان بينها وبين مدينة دوفر الانكليزيَّة ثمانية عشر ميلاً. وانتقلنا منهُ الى سفينة بخاريَّة راسية في المرفإ تنتظر الركاب فلما دخلتها جاشت نفسي من رائحة الفحم الحجري الذي يوقد فيها لانهُ كثير المواد القطرانيَّة وممَّا ينبعث منها من الروائح الخاصة بالسفن القديمة ولعل ذلك السبب الاكبر للدوار في هذا البحر. وكان البحر زهواً ولكن الركاب انذروني بسفر طويل ودوار شديد لان السفينة من اصغر السفن البخاريَّة التي تمخر هذا البحر واقدمها واخبثها فالحّوا واشاروا عليَّ ان لا استلقي في السرير بل اقيم معهم في مجرى الهواء ففعلت وقينا سترة نقينا من المطر فجلست بينهم وجاءنا البحارة بملاءات من النسيج المشمع القوها علينا اتقاء البرد. وسخرت السفينة بنا وهي ترتجف كقصبة تحركها الرياح ونحن نضطرب على ظهرها وتترنح كالسكارى ولم تطأ اقدامنا الارض الانكليزيَّة حتى تمكن الدوار من اكثرنا. وقد اعتلت صحتي من جراء ذلك حتى خيل لي اني مصاب بالهواء الاصفر والزمني الاعتلال اياماً

وحالما بلغنا مدينة دوفر رأينا قطاراً على رصيف البحر فصعدنا اليهِ وسار بنا الى محطة تشرن كرُس احدى محطات لندن ومررنا في طريقنا على آكام وهضاب كستها يد الطبيعة حللاً سندسيَّة ونمقتها يد الصناعة بطارف بديعة الوشي كثيرة النارق. وقد استغربتْ جسامة اشجارها وغضاضتها وانتشار اغصانها فانها كشجر الجميز والسنديان

الكبير في مصر والشام لأكاشجار الحور والكستناء في فرنسا وايطاليا دقيقة الساق قليلة الانتشار . وبيوت القرى كبيرة رفيعة المداخن تدل على ان الفلاح في سعة من العيش . وقد ادهشني تسابق الصنّاع والتجار على ترويج بضائعهم بواسطة الاعلانات فتراها منصوبة في الحقول والمزارع وعلى جوانب المحطات وعلى كل جدرانها حتى الارض التي على جانبي السكة لا تخلو من الاعلانات المكتوبة بالحصى المرصوص في شكل حروف الهجاء

ولما بلغنا محطة تشرن كرُس أُتي بامتعة الركاب فرأيت امتعتي بينها وكنت قد ارسلتها مسجلة من باريس الى هذه المحطة لكي لا اهتم بنقلها من القطار الى السفينة ومن السفينة الى القطار . وسألني رجل من رجال المكس عما اذا كان معي تبغ فقلت لا فرقم عليها رقماً وسمح لي بأخذها فرفعها خادم من الواقفين هناك الى مركبة من النوع المسمى عندهم "بالمنسم" وهي سريعة الجري فذهبت بي الى فندق في شارع سوث همتن اخترتهُ لقربهِ من دار التحف البريطانيّة (برتش ميوزيوم)

وقد أُسقط في يدي لما أشرفتُ على مدينة لندن ورأيت حقارة المنازل حتى ظننت اني في قرية من القرى الصناعيّة الكبيرة ولم اعلم ان تلك المنازل من مدينة لندن نفسها حتى اكد لي ذلك احد الركاب ولكنني لم البث ان وصلت الى محطة تشرن كرُس حتى رأيت الارض مغطاةً بخطوط الحديد ذاهبة فيها كل مذهب وعليها ما لا يحصى من المركبات والسماء محجوبة بمنازل فخيمة تسد وجه الفضاء. وكنت لم أزل اجد انقباضاً في نفسي فلم اعلم أمن اثر سفر البحر هو ام من لون المنازل الفاحم التي كأنها جناح الغراب او جدران المداخن . ومعلوم ان حكم الانسان على ما يراهُ يتغير بتغير حالهِ من الراحة والتعب والانبساط والانقباض ولذلك لم التفت كثيراً الى ما مررت بهِ لكي لا احكم عليهِ حكماً جائراً من النظرة الاولى التي قلما يزول تأثيرها من النفس. وبلغتُ الفندق قبل ان آذنت الشمس بالمغيب وتعشيت مع من فيهِ من النزلاء طعاماً تفهاً لا يستمرئهِ الشرقي ولما شعرت من نفسي بالقوة خرجت اطوف بالمدينة واتفقد مشاهدها العظيمة وشوارعها الكبيرة فرأيت ما ذكرتهُ لغير واحد من اهاليها الذين سألوني عن رأيي فيها وهي انها جامعة بين الغث والسمين والقبيح والجميل والحقير والكبير جمعاً لم أرَ لهُ مثيلاً. فترى هنا منزلاً كبيراً طبقتهُ السفلى من المرمر الاحمر وفوقها طبقات من الحجر الصلب فيها عمد الرخام والبرفير وفوقها التيجان البديعة والشرفات المزخرفة بالنقوش الكثيرة وبجانبهِ منزل صغير من الاجرّ نوافذهُ ضيقة ساذجة لا نقش حولها ولا رسم . وبجانب هذا منزل آخر

مصبوغ باللون الاحمر او الاخضر او الازرق او الاصفر وهو اقبح منهُ منظرًا واكثر سذاجة ويليهِ دار كبيرة من الاجر الاحمر الذي طالت شواوهُ حتى صار كالخزف الصيني صلابةً وكالزجاج لمعانًا وهي بديعة البناء كثيرة الطنوف والشرفات . وامامها جدار بسيط يناطح السحاب بعلوهِ الشاهق والاعلانات تغطيهِ من اسفلهِ الى اعلاهُ وهي مختلفة الالفاظ والمعاني والصور والالوان كأنها قمصان الدراويش المرقعة . والشوارع طويلة واكثرها رحب لكن لا انتساق ولا انتظام في المنازل التي حولها فبعضها فخيم كقصور الملوك وبعضها صغير كاكواخ الصعاليك والفخيم منها ليس على وتيرة واحدة بل قلما تجد منزلين متماثلين . ولا تشترك كلها الاَّ في ان الدخان قد لبسها كساء اسود قبيحًا ألفهُ اهالي لندن فلم تعد عيونهم تستقبحهُ اما الغريب الآتي من مدن شرقية قصرت الشمس جدران منازلها فيحسبهُ وسخًا لاصقًا بها ولا يدري كيف يغضُّ الاهالي الطرف عنهُ مع اشتهارهم بدقة الانتقاد . لكن هذه الشوارع تمتدُّ الى اطراف المدينة وهناك تكثر المنازل الجديدة وهي منسوقة نسقًا يروق النواظر وحولها حدائق غناء تزيدها بهجةً وكأنها بيت بعد ان اتُّخذت التدابير العلمية لتقليل الدخان فلم يحجلها بسوادهِ

ويرى الناقد بعد امعان النظر أن في المدينة قوة حيَّة آخذة في توسيع شوارعها وتنسيق منازلها وازالة البالي منها وتكثير ساحاتها ومتنزهاتها حتى تصبح الاولى بين العواصم نزهةً كما هي الاولى بينهنَّ اتساعًا . ويرى ايضًا ان السكان يبنون منازلهم لهم ولابنائهم وابناء ابنائهم من بعدهم كما بنى اسلافهم لهم . فالبناء متين ومواده من الحديد والمرمر والرخام والحجر والاجر صلبة رزينة لا تخرها انياب الدهر فهي مثل السياسة الانكليزية التي تؤسس اليوم اساسًا تبني عليهِ بعد مئة عام . واكثر الشوارع مرصوف بالحمر (الاسفلت) او بالخشب المقطرن وبعضها لم يزل ترابًا او مرصوفًا بالحصى ولكنَّ الصنَّاع منتشرون فيهِ يرصفونهُ بالخشب بعد ان يبسطوا تحتهُ طبقة ثخينة من الحمر والحصى . ومركبات الركوب والنقل كثيرة تغصُّ بها الشوارع على اتساعها لكن رجال البوليس من انبه الناس واشدهم تيقظًا وكلهم من الشبَّان الطوال القامة الذين تسيل القوة من معاطفهم فترامم واقفين عند مفترق الطرق كالجبابرة والهيبة مرسومة على محيَّاهم فيشيرون الى المركبات باطراف انامليهم وكأنهم يتحكمون فيها بقوة سحريَّة فتقف او تسير حسبما يشاؤون فلا يصطدم بعضها ببعض . وهم مع ذلك على جانب عظيم من البشاشة والاستعداد لمعونة من يستعين بهم ولم اسألهم عن شيء الاَّ اجابوني عليهِ بالطف عبارة واوضح اشارة

ومع هذا الازدحام في شوارع لندن تراها دائمًا نظيفة خالية من كل الروائح الخبيثة حتى مواقف المركبات لا رائحة خبيثة فيها . وممَّا هو من الغرابة بمكان انهُ ينبعث من بعض الشوارع ارج طيب كرائحة الصابون الانكليزي المطيب او كرائحة العقار المسمى باسم سنتاس كأن اهالي لندن يذرون هذا العقار في شوارعهم تطييبًا لرائحتها حتى يصح فيها قول ابن الوردي

هي دار مملكة الرضا فلاجلِ ذا قد أُسبلت دون الهموم ستورها
جمعت فنون الطيب في افنائها وعلا على المسكِ الذكي عبيرها

مستقبل الانسان

تابع ما قبلهُ

ارتقت الاحياء على وجه البسيطة من ابسط الانواع التي لا فم لها ولا عين ولا اذن ولا لسان الى ان بلغت ما بلغتهُ من الارتقاء في نوع الانسان. وارتقى الانسان من حال البساطة والبربريَّة الى ان تسلط على هذه البسيطة وجعلها فردوسًا طافحًا باللاذ

ولم تلبث شعوب الارض ان ابطلت الحروب واسبابها على ما تقدم في الجزء الماضي حتى زادت الثروة والرفاهة وقلَّ التعب والنصب وانصرف همُّ الانسان الى تسخير قوى الطبيعة التي لم يسخرها قبلاً

وارتقى العقل ارتقاء عظيمًا وصار الناس يهزأون باسلافهم الذين كانوا يكتفون بالظواهر ويغضون عن الحقائق . وعلموا ان السعادة الحقيقيَّة مقرها النفس وان القناعة انما تكون بالدرس والعلم وان الحياة قصيرة ويجب ان لا تنفق في السفاسف . وقرَّ الجميع عينًا وطابوا نفسًا بما نالوهُ من حريَّة الرأي والازدراء بحطام الدنيا

وزادت المرأة جمالاً وزاد قدُّها اعتدالاً وعيناها غزلاً وبشرتها بياضًا وشعرها طولاً وغزارةً وثغرها صغرًا وانتظمت اسنانها انتظام اللآلىء في كؤوس المرجان

وطال العمر باتقان الوسائط الطبيَّة والصحيَّة فصار مئة وخمسين عامًا او اكثر ولم يجد الانسان سبيلاً للخلود في هذه الدنيا ولكنهُ وجد سبيلاً لتأخير الشيخوخة وحفظ الشباب فصار ابن مئة عام كابن عشرين عامًا في العصور الغابرة

وسخر الانسان حرارة باطن الارض ونور الشمس وحرارتها ومغنطيسيَّة الارض